الشعر العربي المعاصر

بين الاصالة والتجديد

بقلم الدكتور احمد هيكل

لعل من الواضح اننا لا نقصد « بالاصالة » في هذا المقام معنى التشبث المطلق بالقديم ، مع الغاء كل ذاتية ، فهذا المعنى من الخير ان تطلق عليه مصطلح « التقليدية » كما اننا لا نعني بالاصالة هنا معنى اتخاذ الجيد من القديم مثلا يحتذى ، مع بعض الاضافات التي تفرضها موهبة المحتذى او تفرضها طبيعة الظروف المتغيرة ، فهذا المعنى من الاصوب ان نخصص له مصطلح « المحافظة » .

وهكذا نقصد « بالاصالة » في هذا البحث معنى بعيدا كل البعد عن « التقليدية » الغافلة العمياء ، وعن « المحافظة » الواعية الملتفتة بتعاطف الى الوراء .. وهذا المعنى الذي نقصده « بالاصالة » في مجال الحديث عن الشعر العربي المعاصر ، هو التميز واتضاح الشخصية . وكل هذا لن يأتي الا من تحقق السمات الخاصة ، التي هي خلاصة العناصر الباقية في روح الامة وطبيعتها ، وشتى مقوماتها في الفكر والثقافة والفن والحضارة جميعا .

ولعل من الواضح كذلك اننا لا نقصد « بالتجديد » هنا معنى استخدام اي جديد بطريقة عشوائية ، او بنقله نقلا اعمى لمجرد انه جديد ، فمثل هذا العمل ادخل في باب « التقليد » لان التقليدية ليست مقصورة على احتذاء القديم ومحاكاته وحده ، وانما هي ايضا من احتذاء الجديد ومحاكاته كذلك دون وعي ومن غير اضافة خلاقة واقتدار على الابداع .

وهكذا نقصد (بالتجديد) الاخذ بالجديد الذي لم يعرفه الاقدمون ـ عندنا ـ واستخدام هذا الجديد استخداما فنيا واعيا مبدعا .

وبهذا الجديد يتضح المقصود من هذا البحث ، فهو ليس محاولة للمفاضلة بين « الاصالة » من جانب و « التجديد » من جانب آخر ، فهما في الواقع ـ او بعد هذا التحديد ـ ليسا نقيضين كما ان البحث ليس محاولة للتوفيق بين « الاصالة والتجديد » ، فهما في الواقع ليسا متخاصمين . وانما هذا البحث محاولة لتأكيد ان الشعر المعاصر ـ كأي فن ـ لا بد لبنائه بناء صحيحا ان يقوم على دعامتين متآزرتين ضروريتين ، هما : الاصالة « والتجديد » ، وهذا يقتضي ـ بطبيعة الحال ـ بيان عناصر « الاصالة » في الشعر العربي والكشف عن مراحل تكونها وتخلقها حتى استوت كائنا متميزا السمات . كما يقتضي الامر كذلك الالمام بأبرز حركات التجديد واهم مظاهره عبر العصور الى العصر الحديث ، لنرى ما كان من هذا « التجديد » صالحا لتطوير هذا الشعر وانمائه ، دون ان يمس « اصالته » او يشوه سماته . .

وهذا قد يهدينا الى استنباط معيار فني صادق ، نقوم به ما يعرض من مشكلات تتصل بالشعر ونقده في العصر الحديث ، ولا يكاد يظهر فيها وجه الحق .

ولذا ربما كان الخير ان نلم الماما سريعة بمسيرة الشعر العربي ، منذ جاهليته الى اليوم لكن نقف ـ اولا ـ على اهم تلك العناصر الباقية التي خلدت فيه على مر العصور ، وكونت اخر الامر سمات اصالته ، ثم لكي نعرف ـ ثانيا ـ ابرز الروافد التي غذته خلال الحقب ، ومثلت في النهاية مدى مرونته وطبيعة تجدده .

لقد كان الشعر العربي في العصر الجاهلي يعبر بوضوح عن الانسان العربي ، في احاسيسه الذاتية وهمومه الجماعية ، وكان في هذه وتلك يصور تجارب معيشته ، انفعل الشاعر بها واهتز وجدانه حيالها . وكان الشاعر الجاهلي شديد الارتباط ببيئته ، مفتونا بالتعبير عن كل ما تحويه ماديا ومعنويا . ثم كان شعره تسجيلا فنيا لحياته من جانب ، وزيادة لحياة افضل من جانب آخر . واخيرا كان شعره وعاء حافظا لكل ما آثره من فضائل ، ولما فضله من قيم .

ومن هنا يمكن ان نبرز الملامح الذاتية المبكرة للشعر العربي ، التي تعتبر الخطوط الاولى في صورته . وهذه الملامح هي : التعبير بصدق ووضوح عن تجارب الذات ومشكلات البيئة ومظاهر الطبيعة ، والاهتمام بتعميق الاحساس بالروح العربية والقيم العربية والفضائل العربية ، التي في مقدمتها : الاباء والحرية ، ورفض الهوان والاستعباد ، وبذل الروح في سماحة وفخر فداء الارض والعرض والحفاظ على العهد .

ثم جاء الاسلام ، وكان ثورة فكرية واجتماعية ، زلزلت كثيرا من القيم التي كانت مستقرة في العصر الجاهلي ، وبخاصة تلك القيم التي لم تتضح انسانيا ، ولم تبلغ مستوى اخلاقيا راقيا . وهنا توقف الشعر العربي قليلا ، في محاولة لهضم القيم الجديدة واستيعابها ، وفي محاولة ايضا للتخلص من مأثورات كانت مجالا فسيحا له فيما قبل . ومن هنا بدأ النتاج الشعري في عصر صدر الاسلام قليلا نسبيا ، حتى ظن البعض ان الاسلام حزب الشعر وعوق مسيرته ، بينما لم يعد الامر ان يكون محاولة من الشعر نفسه للتجدد والتكيف ومواكبة الثورة الكبرى التي اشعلها الاسلام .

وهكذا تتضح خاصة اخرى من خصائص الشعر العربي ، أو تبرز سمة من سماته الاصلية ، وهي انه شعر متطور لا يعرف الجمود ، ولا يتحجر عند عصر او بيئة او نظام خاص . وانما هو مستجيب ابدا لحركة الحياة من حوله ، مستعد دائما للتكيف معها وهضمها والتعبير عنها ، حتى لو اقتضى الامر وقفة مستأنية لمراجعة الماضي ودرس الحاضر واستشراف المستقبل وتصحيح المسيرة ، كما فعل في عصر صدر الاسلام .

ثم بدأ الشعر يعود الى الانتعاش في العصر الاموي ، فعبر عن الانسان العربي الجديد ، وعن مجتمعه وقيمه ، ولكن مع بعض رواسب من العصر الجاهلي ، وهي رواسب كثير منها فني يتصل بتقاليد الشعر ويرتبط بموروثه في الشكل والاسلوب وطريقة التصوير والتعبير .

وهنا تبرز سمة اخرى من سمات الاصالة في الشعر العربي ، وهي انه لا يتغير ـ مهما تغير ـ متخلصا من كل موروثه ، ولا مستبدلا كل تقاليده ، وانما يتطور محتفظا ـ دائما ـ بعناصر تاريخية فنية ، هي بعض سماته ولونه واريجه ، حتى لقد وجدنا في شعر العصر الاموي رواسب من تقاليد العصر الجاهلي ، بل وجدنا في بعض نماذج شعر صدر الاسلام حديثا عن الخمر وغزلا في المرأة ، كما يتضح ذلك في شعر حسان بن ثابت شاعر الرسول . وذلك لان افتتاح القصائد بحديث الغزل والخمر كان ظاهرة فنية تاريخية مرعية ، فخضع لها الشاعر الصحابي الجليل ، واستقبل المسلمون الورعون

حديثه استقبالا فنيا متسامحا واعيا ، فاعتبر الحديث عن الخمر والمرأة امرا فنيا خالصا ، لا يلزم صاحبه بقيمة غير قيمة الفن ،ولا يحاسب الا بمعاييره .

وحين اطل عصر بني العباس ، وانتقلت عاصمة الدولة العربية من دمشق الى بغداد ، واختلط العرب بعناصر مختلفة من امم اخرى وبخاصة الفرس ، حدث تحول خطير في البيئة العربية والانسان العربي على السواء . اما البيئة فقد خرجت من بداوتها البسيطة الى مدنية معقدة ، وتخلصت من محافظتها ونقائها الى تحرير مفعم بالشوائب والغرائب .. واما الانسان العربي فقد اصابه هذا التحول الخطير بكثير من عدم القدرة على التمسك ، فكان البعض يتداعى امام مغريات اللهو المتبذل ،حتى يصل الى المجون او الزندقة، كما كان البعض يغالي في المقاومة ، حتى يبلغ حد الاعتزال او الزهد .. وانعكس هذا على الشعراء ـ او ظهر في شعرهم ـ فكانت ثورة ابي نواس وجيله ، ممن رأوا وجوب التعبير عن هذا المجتمع الجديد والانسان الجديد ، بكل ما فيه من شك وقلق ورفض ومجون وسخرية حينا ، ومن انابة وايمان ويقين وزهدحينا اخر.

وهكذا ظهرت فورة كبيرة في محيط الشعر العربي ، مست كثيرا من جوانبه المتصلة بالمضمون او المرتبطة بالشكل . حيث استقلت الخمريات والمجونيات والغزليات الشاذة ، الى جانب الزهديات والالهيات والتأمليات الجادة . وحيث لجأ كثير من الشعراء الى استحداث منهج جديد للقصيدة ، وبخاصة في افتتاحيتها . كما حل التصوير الحضري محل الرسم البدوي ، ومال الاسلوب الى كثير من السلاسة والبساطة والصقل الذي يلائم حياة المدينة والحضر .كذلك تضمن الشعر مادة فكرية تصل احيانا الى درجة الجدل المنطقي او التعمق الفلسفي ، نتيجة لما كان من حركة فكرية ضخمةاستمدت كثيرا من فلسفة اليونان وحكمة الهند .

ولكن هذه الفورة الكبيرة التي تأججت في ايام ابي نواس ، هدأت في ايام ابي تمام ، بعد ان زالت الفاشية عن النفس العربية، وبعد ان انكشفت الغشاوة عن المجتمع العربي ، وبعد ان الف العرب تلك الحضارة الجديدة ، وتجاوزوا مرحلة الانبهار بها ودخلوا مرحلة تأملها ونقدها واختيار الصالح منها . حينئذ عاد الشعر العربي ـ مع ابي تمام وجيله ـ الى اصالته ،ورفض كثيرا مما اصابه او فرض عليه ايام الفورة مما يتنافى مع الطبع العربي والروح العربي والقيم العربية . فاختفى شعر الشعوبية والاستخفاف بالعروبة ، وتقلص شعر المجون والزندقة حتى لم يعد له مكان ، ودرست ظاهرة افتتاح القصائد على طريقة ابي نواس تقريبا ، ومال منهج القصيدة العربية الجادة الى الظهور ، كرد فعل لتطرف ابينواس واصحابه ، كذلك عاد استلهام الحياة العربية والبيئة العربية ـ حتى البدوية منها ـ في التصوير والتعبير ، حتى تعود الى القصيدة العربية ملامحها التي شوهت وطهارتها الفنية التي لوثت . ولم يتقوقعابو تمام وجيله ، او يرتدوا بالشعر وينكسوا به حين فعلوا ذاك ، لانهم عبروا عن عصرهم اصدق تعبير ، حتى ليعكس شعرهمصورة هذا العصر بكل ما فيه من حضارة وفكر وثقافة وفن ، برغم هذا الذي كان منهم من طرح مذهب ابي نواس وجيله ، وقد بلغ هذا الاتجاه الذي راده ابو تمام ذروته مع ابي الطيب المتنبي ، حتى ليمكن ان يعتبر هذا الشاعر الكبير اعظم من مثلوا قيمه .

ومما حدث للشعر العربي في العصر العباسي ، من لدن ابي نواس الى ابي الطيب ، يمكن ان تبرز بعض الملامح الذاتية للشعر العربي ، التي تشارك مع الملامح السابقة في تشكيل صورته الاصيلة وطبيعته المميزة . ومن هذه الملامح التي اضافها تاريخه في العصر العباسي : ايثاره للجد ، ونفرته من التبذل واللهو البذيء والمجون الرخيص ، ثم تعلقه بالقيم النبيلة والاهداف الكريمة ، التي عاش عليها الانسان العربي والمجتمع العربي في عصور استقراره ووعيه وادراك حقيقته .

ومن هذه الملامح التي اضافها تاريخ الشعر العربي في العصر العباسي كذلك ، والتي شاركت في تشكيل صورته الاصيلة وطبيعته المميزة : هضمه للثقافة العميقة حتى ولو كانت موغلة فيالعقلانية على ان تخرج بعد ذلك في صورة شعرية فاضلة رفافة ملائمة لطبيعة الشعر . ثم مرونة قوالبه اللفوية والموسيقية والتصويرية ، بمايلائم حركة الحياة ومتطلباتها في البيئة الجديدة .

ثم كان الوجود العربي في الاندلس ، وانتقلت الاتجاهاتالشعرية الشرقية الى هناك ، واخذ الشعراء الاندلسيون يعبرون عن ذواتهم وبيئتهم ، مضيفين الى ملامح الشعر العربي اضافات حسبت لهم، كتعميق اللون المحلي ، وتغليب الجانب العاطفي ، وزيادة التنويع الموسيقى . وكان هذا الجانب الاخير هو اهم ما اضافوه الىملامح الشعر العربي . فقد اخترعوا الموشحات مطورين بها موسيقى الشعر تطويرا كبيرا . وبشيوع هذه الموشحات بينهم وفي كل البيئات العربية ، برز هذا الطابع الذي يجب ان نقف عنده في طبيعة الشعر العربي ، وهو انه قابل دائما لتطور موسيقاه ، ولا يشترط ابدا لتلك الموسيقى ان تكون هي موسيقى القصيدة الملتزمة لوحدة البحر ورتابة القافية . فقط يجب ان تكون هذه الموسيقى ممثلة عنصرا اساسيامن عناصر العمل الشعري ، وذلك بان تكون من الوضوح بحيث تؤدي وظيفة لا تقل عن تلك التي تؤديها الكلمات والتعابيروالصور.

ثم اعقب انهيار دولة بني العباس وسقوط الاندلس تخلف للامة العربية ، بسبب ما اصابها من تمزق في الداخل ، وبما نكبت به من عدوان من الخارج . واثناء ذلك التخلف ـ الذي وصل حضيضه في العصر التركي ـ تخلف الشعر العربي بصفة عامة ، ولم يعد في جملته الا الوانا من المحاكاة للقديم بل تقليدا للردىء من نماذجه .

ومن هنا اثبت الشعر العربي انه لا يعيش بعيدا عن الرقي الحضاري والازدهار السياسي والاجتماعي والفكري والثقافي والفني، ولا يمكن ان يكون مجرد لغة تنظم الفاظها ، وترص تراكيبها وتتابع تفاعيلها وقوافيها .

واخيرا اشرق العصر الحديث ، واتصلت امتنا منجديد باسباب الحضارة ، واطلتها حركة بعث في السياسة والاجتماع والعلم والفن . وكان من اهم اسباب ذلك ، اتصالها بمنابع الحضارة الغربية الحديثة من جانب ، وتنبهها الى منابع القوة في الحضارة العربية القديمة من جانب اخر . وهنا عاد الشعر العربي ـ ككثيرمن الفنون ـ الى حياة نشطة ، واخذ يجدد مسيرته ، حتى قطع شوطا كبيرا في سبيل وجوده الكريم ، بدأه من عهد البارودي في منتصف القرن الماضي ، ما زال يخطو نحو غايته في عهد اصحاب الشعر الحر منذ منتصف القرن العشرين .

وخلال هذه المسيرة الطويلة في العصر الحديث طرأت علىالشعر العربي نزعات ، وحاولت ان تسيره اتجاهات ، وتبث حول وجهته خصومات . فكانت اولا نزعة المحافظين الذين كان اساس نزعتهم البارودي كما كانت قمتهم شوقي . وقد كان هؤلاء يرون ان الطريق الاصلح لمسيرة الشعر ، هو ان يسلك سبيل النماذج الشعرية العربية الجيدة التي خلفتها عصور الازدهار العربية ، بحيث تعتبر هذه النماذج المثل الاعلى للقصيدة في لغتها واسلوبها وروحها وموسيقاها، لكي تكون بعد ذلك القالب الذي يعبر به الشاعر الحديث عنتجاربه هو وبيئته هو وعصره ، مع ما يفرض ذلك من ضرورة الاضافة والحذف والتغيير والتبديل ، في اطار المحافظة على هذا القالب الجليل للقصيدة العربية .. ثم كانت بعد ذلك نزعة التجديد بين الذين كان من سابقيهم مطران ومن مناضليهم العقاد وشكري والمازني. وقد كان هؤلاء يعتقدون ان الاصوب لمسيرة الشعر هو انيتدبرالنماذج العربية المأثورة وان يتبع الاتجاهات الشعرية العالمية المسيطرة، بما لها من قيم فنية ممتازة كالوحدة العضوية والتعبير بالصورة وكالصدق الفني ، واتضاح شخصية الشاعر ، وما الى ذلك .كل هذا مع المحافظة على طبيعة اللغة وصحتها وعلى الطابع العربي

وتميزه . .

ثم تولدت ـ ربما من النزعتين السابقتين مع عوامل ثقافية وفنية اخرى ـ نزعة شعرية اخرى وهي نزعة الابتداعيين ، الذين كان من مشجعيهم ابو شادي ، كما كان من عمالقتهم ناجي والهمشري ومحمود حسن اسماعيل . وقد جنح هؤلاء بالشعر الى جهة اخرى، فآثروا الرمز ووسعوا في المجاز وجددوا في الوصف ، حتى ابتدعوا في الشعر العربي ابتداعا خطا به خطوات افسح من خطوات التجديديين السابقين . .

واخيرا ـ وفي حدود الخمسينات ـ ظهر اصحاب الشعر الحر، فوجهوا الشعر العربي او حاولوا توجيهه ـ الى وجهة تخالف في كثير من ملامحها كل ما عرف للشعر العربي من سمات ، على ايدي السابقين من المجددين . فقد تركوا ما عرف قبلهم من قوالب موسيقية للشعر ، واستحدثوا قوالب جديدة ، اساسها ترك التزام وحدة البحر والقافية ، بجعل وحدة التفعيلة تحل محل وحدة البيت، وبعدم الاخذ باي لون من الالتزام فيما يتعلق بالقافية . . هذا من ناحية الشكل الموسيقى ، اما من النواحي الفنية الاخرى ، فقد افرط بعضهم في الواقعية ، كما افرط بعضهم في الرمزية ،كما تردد بعضهم بين هاتين والرومانسية . كذلك اهتم اكثرهم باساليب تعبيرية جديدة كالقص والحوار ورسم المشاهد الدرامية واستخدام الاساطير والرموز . كل ذلك مع توفيق حينا واخفاق حينا اخر .

وطبيعي ان تسبب تلك النزعات المختلفة معارك ، وان تفضي في كثير من الاحيان الى البلبلة وعدم اتضاح وجه الحق . هذا وان كانت كل تلك النزعات وما صاحبها من معارك قد دفعت بالشعر كثيرا في طريق تطوره وصعوده ، بحيث كان تقدمه وسموه ـ غالبا ـ اكثر من تعثره وهبوطه . . لكنا مع ذلك لا نزال امام حيرة في بعض امور الشعر ، ولا يزال المشتغلون بانتاجه ونقده مختلفين حول عدد غير قليل من قضاياه الاساسية . فما يراه البعض خيرا يراه اخرون شرا ، وما تعده جماعة حسنا تعده اخرى قبيحا . حتى لقد وصل الامر احيانا الى ما يتنافى مع المعاصرة ووحدة الثقافة ، مما يحتم محاولات جادة لتصفية الموقف وتوضيح وجه الحق .

وفي رأيي ان اي شعر ممتاز ـ كاي فن ممتاز ـ لا بد ان يقوم على دعامتين ، هما : الاصالة والتجديد . اما « الاصالة » فلا بد منها بالنسبة للشاعر الفرد ، ولا بد منها كذلك بالنسبة لمجموع نتاج الامة . فكل عمل لشاعر لا بد ان ينم عن ذاته ، عن روحه، عن تفرده ، عن عبقريته وموهبته وشخصيته ، تماما كلون عينيه وشعره وبصمات اصابعه . . وكذلك مجموع شعر عصر او جيل او امة لا بد ان ينم عن روح هذا العصر وطبيعة الجيل وشخصية الامة . . ومن هنا لا بد ان يتضح في شعرنا المعاصر ـ الى جانب تميز شخصيات الشعراء ـ تميز شخصية امتنا ، وان تظهر مع روح العصر ـ روح شعبنا ، وان تتجلى ـ بالاضافة الى مقومات الفن ـ مقومات عروبتنا في الفكر والفن والحضارة جميعا ، بحيث يحس قارىء هذا الشعر او سامعه انه ـ فعلا ـ شعر عربي ، وليس شعرا اجنبيا مكتوبا بحروف عربية .

واما « التجديد » فلا بد منه كذلك بالنسبة للشاعر الفرد ، ولا بد منه كذلك بالنسبة لمجموع نتاج الامة . فكل عمل لشاعر ، لا بد ان يكون مجرد وقوف عند المألوف . ولا بد ان يشتمل على اضافة تحسب لصاحبه ولو يسيرة . وبهذا وحده يمضي الشعر في مسيرته الى امام ، ناميا حيا صاعدا باقيا . فمن مجموع الاضافات الخلاقة والتجديدات البناءة تتالف الخلايا الحية المتجددة في الكيان الشعري . ولا يمكن ان يكتفي هذا الفن ـ ولا اي فن ـ بالمحافظة على ملامحه المعروفة وسماته المألوفة وعناصره الباقية ، لان هذه جميعا من غير اضافة دائمة متجددة اليها تتحول الى ملامح جامدة على جسد تمثال ميت . . وكذلك يتحتم ان يضيف كل عصر وكل جيل في العصر الواحد اضافات تجديدية الى رصيد الشعر ، بحيث ينمو هذا الرصيد دائما ، وبحيث تستمر روح الشعر حية ابدا بفضل تجديدات الاجيال . والا لو بقى كل جيل يعيش على رصيد الجيل السابق دون اضافة لمضت الحياة مخلفة وراءها هذا الكائن المتحجر الاشبه بما يعثر عليه في الحفريات . .

واذا كان لا بد من تحقق « الاصالة » و« التجديد » جميعا لقيام شعر جيد باق متطور ، فلا بد بالضرورة ـ من مراعاة عدم طغيان احد العنصرين على الاخر ، لان « الاصالة » اذا طغت على « التجديد » ورطت في المحافظة او اوقعت في التقليد ، ولان « التجديد » اذا جاء على « الاصالة » جر الى المحاكاة العمياء او النقل الابله . . واذن فلا بد « للاصالة » من « تجديد » يكافئها ويسمو بها عن ان تكون تقليدا للقديم او مجرد محافظة عليه ، ولا بد « للتجديد » من ان يستند دائما الى اصالة تعادله وتعصمه من ان يكون نقلا للحديث واقحاما لشيء غريب على طبيعة الفن الشعري العربي كما تشكلت وتخلقت عبر العصور .

وهكذا نجد لدينا معيارا محايدا ـ وعلميا الى حد كبير ـ يمكن ان نحتكم اليه في كثير من تلك القضايا الشعرية التي لم يتضح فيها وجه الحق ، ونكون قد ربحنا من خلال نظرتنا الوصفية في تتبع مسيرة الشعر العربي ، قاعدة معيارية تفيدنا في تقويم الشعر المعاصر وحل بعض قضاياه . فأية ظاهرة فنية يمكن ان نقيسها بهذا المقياس لنعرف اخر الامر مالها وما عليها .

وهذا المقياس هو :

« التآزر بين الاصالة والتجديد » اي تحقق العنصرين معا تحققا متكافئا مترابطا متعادلا ، بحيث لا يخلو العمل الشعري منهما ولا من احدهما ، ولا يطغى جانب منهما على الجانب الاخر .

وقد برزت لشعرنا العربي ـ من خلال عمره الطويل ـ ملامح مميزة ، تعتبر في مجموعها ـ او اغلبها ـ اركان اصالته وعنوان تميزه وتفرده . وهذه الملامح هي تلك السمات التي بقيت لنماذجه الخالدة، التي عاشت معبرة عن الانسان العربي بكل قيمه وروحه واحاسيسه، وعن الامة العربية بكل طبيعتها ومقوماتها في الفكر والفن والحضارة جميعا . . اما تلك السمات التي تلاشت مع العصور ، فهي عوارض زائلة وليست سمات باقية .

وقد عرفنا من تلك السمات الباقية ما تخلق منذ اقدم الازمان ابان العصر الجاهلي ، مثل ايثار الشعر للوضوح والصدق والتعبير عن تجارب الشاعر وبيئته وتعميق الاحساس بقيمه الرفيعة ومثله الباقية .

كما عرفنا من تلك السمات الباقية ما ظهر بعد الاسلام ، مثل الاستجابة للثورات الانسانية ، والتفاعل مع الحركات التقدمية ، حتى لو اقتضى الامر التوقف حينا لتمثلها ومواكبتها والتعبير بعدذلك عنها .

كذلك عرفنا من تلك السمات الباقية التي ظهرت بعد الاسلام سمة الاستمرار ، التي بمقتضاها رأينا شعراء اسلاميين لا يتخلون كلية عن جميع تقاليد الشعر الجاهلي ، مهما تغير مضمون شعرهم وتحولت غاياته وتبدلت اساليبه بعد مجيء الاسلام .

كذلك عرفنا من تلك السمات الباقية لشعرنا العربي ما اتضح خلال العصر العباسي ، مثل الانفساح لاستيعاب كل جديد غير منافٍ للروح العربية والقيم العربية والذوق العربي ، ورفض ما سوى ذلك مما يمس القومية العربية او الفضائل العربية او تماسك العرب في حياة كريمة فاضلة على ارضهم .

كذلك عرفنا من تلك السمات الباقية للشعر العربي في ذاك العصر ، تعاطفه مع الحياة العربية والبيئة العربية في كثير من مظاهرها المادية والمعنوية ، بحيث استلهم تلك الحياة بمعالمها واماكنها واسمائها وتقاليدها ، فحقق الوانا من الايحاء العميق للاحساس ، بفضل ما تحمل تلك المعالم والاماكن والاسماء من شحنات عاطفية غنية .

ثم عرفنا من تلك السمات الباقية للشعر العربي ابان الازدهار الاندلسي ، مرونته امام الموسيقى المتطورة ، وعدم اكتفائه بالموسيقى

الشعرية التي حدد معالمها الخليل بن احمد .

واخيرا عرفنا من سمات الشعر العربي الباقية ما اكدته مسيرته خلال العصر الحديث . ومن تلك السمات : استجابته للتأثيرات الفنية التي تخدم طبيعته ولا تطمس سحنته .. مثل الاخذ بالوحدة العضوية والميل الى التعبير بالصورة ، ومثل التوسع في المجاز اعتمادا على ظاهرة تراسل الحواس ، ومثل التجديد في الوصف والاهتمام بالرمز ، والعناية بالعناصر القصصية والمشاهد الدرامية والحوار الحي.

وليس من شك في انه يأتي في هذا المقام اتساع قولبه لاشكال جديدة ، كالقصصية والملحمية والمسرحية ، ما دام هذا في اطار الحفاظ على باقي الملامح السابقة التي اكتسبها الشعر العربي عبر العصور واصبحت من مقوماته الاساسية وملامحه المميزة .

وقد اتضحت تلك السمات المستحدثة من خلال النماذج الجيدة التي خلفها امثال شوقي ومطران والعقاد وناجي ومحمودحسن اسماعيل وعبدالرحمن الشرقاوي ونازك ونزار والسياب وصلاح عبدالصبور والفيتوري وعبده بدوي وغيرهم .. واضافت تلك السمات المستحدثة التي تقبلها الشعر العربي ملامح جديدة تكمل صورته وتعطي مع سوابقها معالم اصالته .

فاذا ما أردنا تطبيقا للمعيار الذي انتهينا اليه - وهو معيار التآزر بين الاصالة والتجديد - على بعض مشكلات الشعر في العصر الحديث ، فلناخذ مثلا هذه القضايا الثلاث من قضايا الشعر، وهي: قضية « الشعر الحر » وقضية « الغموض » وقضية (استخدام الرموز) ، لنرى كيف يمكن ان يهدي هذا المعيار في هذه القضايا الى وجه الحق .

اما قضية « الشعر الحر » ، فبناء على ما انتهينا اليه من اعتبار الموسيقى سمة اساسية من سمات الشعر ، فاننا نرى ان تحقق هذه الموسيقى بوضوح في العمل الشعري محقق لهذا الجانب من الاصالة. وليس بلازم ان تكون تلك الموسيقى هي موسيقى الخليل بن احمد، لاننا وجدنا الشعر العربي - خلال تاريخه الطويل - قد طرأت على موسيقاه تغيرات عديدة في المشرق والاندلس ، وقد استجاب لها جميعا وغنى بها وازدهر معها . على ان الموسيقى - اخر الامر - جانب جمالي ، والقاعدة فيها مرنة بطبيعتها ، من شانها ان تتطور حسب الاذواق والازمان والبيئات . ولا يفضي التغيير فيها الى خطورة كتلك الخطورة التي يفضي اليها التغيير في القواعد التوقيفية كقواعد اللغة. ذلك ان التغيير في قواعد اللغة - او مقتضيات هذه القواعد - يفسد المراد من الحديث ، او يغير المعنى المقصود ، بعكس التغيير في القواعد الجمالية التي منها الموسيقى الشعرية ، اذ هو علامة تجديد وسمة تطور ودليل ملاءمة للذوق الجديد في الزمان او المكان .

واما قضية « الغموض » الذي اصبح ظاهرة تغلف بالضباب والالغاز كثيرا من نتاج الشعر ، فبناء على ما عرفنا من سمات الشعر العربي الاصلية نرى ان هذه الظاهرة لا تتفق مع « الاصالة » - وان كان لها حظ من « التجديد » في بعض الاحيان وذلك لان شعرنا العربي قد اتخذ الوضوح - في كل عصوره - سمة من سماته الفنية المميزة، حتى لقد اعتبرت النماذج القليلة المتورطة في الغموض المعمى نماذج بعيدة عن بلاغة العرب ، ووضع النقاد لتعقيداتها نعوتا سيئة محذرين من التورط في امثالها .. نعم ليس المراد بالوضوح السفور الكامل والمباشرة المطلقة ، فقد كان كثير من شعر ابي تمام وابي الطيب وابي العلاء محتاجا الى اعمال فكر وامعان نظر واطلاق خيال، وكان هذا الشعر من غرر الشعر العربي .. وانما المراد بالوضوح البعد عن الالغاز الذي مصدره عدم اتضاح الفكرة ، او عدم تمثل التجربة ، او مرده الى المحاكاة العمياء لبعض الاتجاهات الغربية، او مرجعه الى مجرد شطح الخيال وتداعي التعابير او تسجيل كلام غريب للفت الانظار والتمسح بالتجديد . وطبيعي انه لن تدخل في هذا اللون المنافي للاصالة تلك الالوان من التعابير الفنية الشعرية ، التي تعتمد - في شيء من الغموض الفني الواعي - على اصول عربية مقررة ، وبهذا لا تدخل في الغموض الملغز الذي يرفض لمنافاته للاصالة .. ومن هذه التعابير الفنية الشعرية تلك التي تعتمد على تراسل الحواس ، فتصف المسموع بما يوصف به الملموس ، وتتحدث عن المسموع وكأنه شيء مشموم ، وهكذا . فهذا اللون من التعابير يمكن رده - بشيء من التأمل - الى التوسع في المجاز ، الذي هو وسيلة جيدة من وسائل التعبير الشعري . فحين يقول شاعر عن لحن « انه لحن ابيض » فيصف المسموع بصفة المرئي ، لا ينبغي رفض هذا بحجة الغموض ، لانه في الواقع ليس الا مجازا علاقته الجامعة بين المنقول منه والمنقول اليه ، هي الحالة النفسية الواحدة في كل ، فانا حين استريح للحن هادىء بريء نقي تحس نفسي نحوه ما تحسه حين تتلقى عيني اللون الابيض بصفائه ونقائه وبراءته ، ومن هنا استعير الوصف بالبياض الذي شأنه ان يكون للمنظور ، واخلعه على اللحن الذي شأنه ان يوصف بما يوصف به المسموع . فهذا مجاز بعيد نوعا ولكنه مجاز على كل حال .

ومثل هذا يمكن ان يقال في كثير من التعابير الرامزة والتراكيب الموجهة التي تزخر بها اشعار الممتازين من المجددين المحدثين الواعين ، والتي لا تكفي في فهمها معرفة المعاني اللغوية ، وانما تحتاج الى معايشة لعالم الشاعر ، وتمثل لتجاربه وتصور لتحقيقات خياله .. وهذا كله شيء مقبول ولا يتنافر مع سمة الوضوح التي هي معلم من معالم الاصالة العربية .. اما ذاك الابهام الملغز الذي ليس وراءه عمق تجربة ولا انطلاق خيال ولا توسيع مجاز ولا محاولة ايجاد، فانما هو شيء بعيد كل البعد عن « اصالة » الشعر العربي ،مهما اريد به « التجديد » .

واما مسألة « استخدام الرموز » التي اصبحت ظاهرة من ظواهر الشعر المعاصر ، فقد اتضحت بصفة خاصة عند الشعراء المتأثرين بالشعر الاوروبي كشعر « اليوت » . وكلمة الحق في تلك الظاهرة - بناء على ما عرفنا من معيار « الاصالة والتجديد » هو ان تلك الرموز اذا كانت ترجع الى الرصيد الحضاري الفني العربي كانت عنصرا تجديديا ناجحا ، لانه يعمق الاحساس بما يحمل الرمز من طاقات شعورية او ظلال تاريخية او ايحاءات فنية ، دون ان يمس الاصالة التي تفرض الحفاظ على الروح العربي والجو العربي عموما.. اما اذا كان مرد الرمز الى رصيد غريب ، فانه قد يخدم «التجديد» ولكنه يسيء الى « الاصالة » ،حيث يبدو الشعر ذو الرموز الاجنبية - من اسماء واماكن واشارات تاريخية او فنية - وكأنه شعر اجنبي مترجم ، او على الاقل يبدو وكأن صاحبه يفكر بعقلية غير عربية او يحلق بجناحين مستعارين من الشرق او من الغرب ، نعم قد يقال : ان تلك الرموز الغريبة ملك للانسانية ، وان استخدامها بين المثقفين ثقافة عالمية محقق لغايتها الفنية . ولكني اقول : ان الموسيقى «السمفونية» كذلك موسيقى عالمية وانسانية ، ولكني حين اريد ان اعبر عن نفسي نغما - كعربي - انما اعبر بموسيقى عربية ، حتى انني لو ضمنت موسيقاي جملة من « سيمفونية » على سبيل الايحاء ، لم يخرج ذلك عن كونه تطفلا او سرقة او خلطا .. ان الموسيقي العربي المحافظ على « الاصالة والتجديد » هو الذي يرمز - اذا رمز - بجملة موسيقية عربية لها رصيد شعوري لدى الجمهور العربي اولا ، ولا تلبس الكيان العربي زيا اجنبيا ماسخا ثانيا .

وبعد ،لعل في هذه العجالة ما يهب المحاولة بعض النجاح،فنخرج منها وقد آمنا بوجوب تآزر « الاصالة والتجديد » والاحتكام الى معيار هذا « التآزر » فيما يشغل حياتنا الشعرية والنقدية من خلافات ، يمكن ان تحسم ، او يهدأ غبارها على الاقل ويتضح وفيها وجه الحق .

جامعة القاهرة

احمد هيكل